الباب الثاني
عصر صدر الإسلام والدولة الأموية
الأدب الإسلامي
عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخميين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولاسيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة العرب لوجود البيت، ومعقلَ العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجَمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومَحَجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم – وهي الهدنة العامة المقدسة – نعمةَ السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة. وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرةُ واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعو إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهيئون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، ويذيعون وحدة الخلق والعادة

واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفوس الرغيبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية التي يدعوهم إليها الله. ثم كانت الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجدب والحرب، ويعانون إلى ذلك عَنت الكبراء، وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة. ناهيك بما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السحت وتطفيف الكيل وكلَب الزمان. فكان من جراء هذه المادِّية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيأت الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومَثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: " أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوَّة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة ". وكان ذلك فعلا طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جليًا من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معنا السفه والحمية والأنفة – وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والانقياد إلى الله – وهي قوام الدين الجديد الذي يقول:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان 63]. وبمعنى ذلك قول عمرو ابن الأهتم يفاخر الأحنف ابن قيس، وقد اجتمعا للرياسة بين يدي عمر ابن الخطاب:" إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر الله لنا ولك " فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه.

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفي إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية. أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: " إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء. كلكم لآدم؛ وآدم من تراب. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في الله لا في العصب. وهذا التغير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء؛ والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغنى الذي كان ينَّحر ويثرى بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة، يسنان الشرائع، ويرسمان الآداب، ويهذبان الأخلاق، ويقرَّان في القلوب المشركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظماً جديدة للأسرة والأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتساير ما سيكونون عليه من بعد. فضاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. واقتضت الدعوى الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد. وقلت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلي صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب ومعاذ ابن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقيهة المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل

الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود الله على رسوله. وكان من زعمائهم من يُقبل على الإسلام كقيس ابن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنَّ مَثلَ ما بعثني به الله من الهدي والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ". ومصداق هذا الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب، وحدوث الرِّدة على أثر وفاة الرسول، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز، وانبعاث العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين، وبين الهاشميين والأمويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدرون عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل.

* * * * *

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة. فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد، وانتشارهم في مختلف البلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونِحَل كثيرة، ومصروا فيه البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خاف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون

واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنُّظم؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُلتقى الفلسفتين الشرقية والغربية؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشغر. وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعا عقلياُ وجنسيا باقتباس مدنيتهم وعقليتهم وجنسيتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاجُ العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقي الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، وذلك الجدال الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن، وافتعال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير ن وفي الشام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول، والخوارج ينكرون ويفكرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكامل للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية، وتأثير

الأمم الأجنبية بلغاتها وعادتها واعتقاداتها وأدبها، ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثاره هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما نعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصادر الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في:

القرآن، والحديث، والأدب الجاهلي، وما نُقِلَ من الأدب الأجنبي.

1- القرآن الكريم

القرآن الكريم أول كتاب دوِّن في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع للآذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقرَ، ولا هو مرسل يطَّرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارئ ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريض وأمراء البيان أكروه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يجرؤ النقد البياني على أن يطير في جنباته، وباعتباره معجزة الرسول تحدّى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالا لحجته، أو انتهاجا لخطته، على نحو ما ورد عم مسيلمة: " يا ضفدع نقي ما تنقين، فلا الماء تكدرين، ولا الشاب تمنعين "، ولكن الرواة أغلفوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهناك طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما

حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. لذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم؛ جُمل متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المُثُل لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحداثه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فظلت آيةُ على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشئ، يرصع بها كلامه فتميز بطلاوته ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجِزْع.

أسلوبه

نزل القرآن مَنجَّما[1] في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون

---

(1) قلت: نزل منجمًا: نزل على فترات متباعدة ومفرقا .

فالقرآن -على الأصح- كما يقول السيوطي في الإتقان: نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة.

ومعنى نزوله منجماً أنه نزل مفرقاً أي لم ينزل دفعة واحدة، وإنما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجزءاً حسب الوقائع والأحداث، والعرب تقول للمفرق: منجَماً.

وأما لماذا نزل كذلك، ولم ينزل دفعة واحدة؟ فقد تولى الله جواب ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان:32].

قال السيوطي : يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل. فأجابهم الله بقوله "كذلك" أي أنزلناه كذلك مفرقاً "لنثبت به فؤادك" أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز؟، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. انتهى

ومن فوائد إنزاله منجماً تسهيل حفظه، ولأن منه الناسخ والمنسوخ، ولأن فيه جواب من يسأل عن أمور ووقائع وغير ذلك.

سورة، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجمَّع على هذه الصورة ودُوِّن بعد وفاة الرسول تبعًا لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولا محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررن بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتَشَتَّتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية – وهي ثلثا القرآن – على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جُمَّاعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والائتمار بالمعروف والإنهاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثَّق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير الآي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادي؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضار الضلالة والجهالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه

تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرفُ الغرض، وتَنُّوع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثَّق ونحن إلى هذا الرأي أمْيَلُ. فإن القوم الذين تُحُدُّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة؛ إنما كانوا بُلغَاء مَصادعَ، وخطباء مَصاقع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الحِجاج، ما يُعجز طَوْقَ البشر، ويرمي المعارضين بالسكات والحصر.

لغته

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي وُلد فيها وبُعث منها، ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرْس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقبيلتها تشرُف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد ابن بكر؛ لأن الرسول (ص) استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز[1] من هوازن وأفصحها، لقوله صلى الله عليه وسلم: أنا أفصح العرب بيَد أبي من قريش، وأني نشأت في بني سعد ابن بكر.

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: 14] أي لا ينقصكم بلغة بني عبس. ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

---

(1) يقال لهؤلاء أيضاً عُليا هوازن؛ وهم: سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم.

أغراضه ومعانيه

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة. فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله: ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد آياته، وتأييد الرسول بتحدي المكابرين، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف.

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية، وما تستتبعه من قصاص وحدود، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني، والمعاني متفقة مع الأغراض، اتفاقا دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله.

تأثيره

شغل المسلمون بالقرن وفرغوا له؛ فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجَهم في العمل، ودستورهم في الحكومة. فسرى هَديهُ فيهم مَسرى الروّح ونزل وحيهُ منهم منزلة الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله. فأما تأثيره في اللغة وأدبها – وهو ما يعنينا الآن ذكرُه – فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها، وطباعها جافية فأرقَّها، وأحلاماً طافية فأقرها، فكسب ذلك اللغة عذوبة في اللفظ، ورقة في التركيب، ودقة في الأداء، وقوة في المنطق، وثروة في المعاني، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي ضمن بقاءها تلك

القرون العديدة، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: 9] وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته.

قراءاته

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام[1]؛ وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحون مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمد والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهُم واليهُم. فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطيع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرءوه بلحونهم وأقرهم[2] الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء، ومن جرأة ذوي العلل والمراء، وقراءات لم

---

(1) يدل على ذلك خطب الوفود الذين وفدوا على الرسول (ص) فقد بلغ من اختلافها من لغة قريش أن قال على (رضه) لرسول الله وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره! فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

(2) روى عن عمر ابن الخطاب قال سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (ص) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئيها رسول الله (ص) كذلك، فكدت أساوره في الصلاة. فصبرت حتى سلم. فلما سلم لبيته بردائه. فقلت من أقرأك هيه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال: أقرأنيها رسول الله (ص) فقلت: كذبت فوالله إن رسول الله (ص) فهو أقرأني هذه السورة. فانطلقت به أقوده إلى رسول (ص) فقلت. يا رسول الله أني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان: فقاال رسول الله (ص): اقرأها يا هشام. فقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (ص) فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها. والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب.

تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن طبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: أبو عمرو ابن العلاء (154) وعبد الله ابن كثير (120) ونافع ابن نعيم (169) وعبد الله ابن عامر (118) وعاصم ابن بهدلة الأسدي (128) وحمزة ابن حبيب الزيات (156) وعلي ابن حمزة الكسائي (189) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعا. وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (132) وقراءة يعقوب ابن إسحاق الحضرمي (185) وقراءة خلف ابن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذ.

جمعه وتدوينه

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر، وبعد أن رتبت آية وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول الله والقرآن إما مسطور في العُسُب واللّخاف والأكتاف، وإما مذكور على ألسنة الصحابة. ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفَّاظه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: " كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً!" فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد ابن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبي. فلماذا اتسعت رقعة الدولة وانتشر القرَّاء في الأرض اختلفوا في قراءتهم اختلافهم في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فخشي عثمان أن يختلفوا في دلالته كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن ابن

الحارث بن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوَره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44] ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216] ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249] ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ﴾ [البقرة: 263] ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: 265]. ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: 92]. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: 159]. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: 160]. ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: 123]. ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [النساء: 100]. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: 11]. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: 84]. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ [الروم: 4]. ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾ [الأحزاب: 4]. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: 43]. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ۖ﴾ [يونس: 23]؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: 10]. ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: 34]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ [آل

عمران: 185]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: 38]. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: 14]. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4]. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7 – 8]. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: 23 – 38].

2- الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق، وأقوم طريق يؤدي إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحت عن رسول الله قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش. واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية، وتضلعه من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية، ولكن قيمتها اللغوية ودلالتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان يدونه عند نزوله كتبةُ الوحي، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين، " فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه " أما الحديث فلم يدون إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يُروى من الذاكرة، والذاكرة كثيرة ما تخون، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في تلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولو الأهواء الكذب على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة؛ فملئوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية، كالأحاديث الموضوعة في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السور ترغيباً للناس في دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة

عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرظة ابن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دويٌّ بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله (ص). ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد روَى الزهري عن عروة ابن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكا فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء.

فكان من جراء ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموَّهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفطنوا إلى درئها إلا حين استفحل الشر وانتشرا الأمر وأصبح الطب لدائها مستحيلا.

ليس من همَّ الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدثين من جرح وتعديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريف العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوع كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء

فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المألوف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها اثر الإلهام وسمة العبقرية وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنى واضح معين، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملائمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة ابن أبي زهير النهدي، ومع لقيط ابن عامر ابن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره[1].

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسُل من قبل ولاسيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجع ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: " إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. المؤمن هين لين كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديهم اهتديتم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بطانا. مَثَل المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. المؤمن آلف مألوف. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم

---

(1) انظر: العقد الفريد ص 181 ج 1 .

أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. إياكم وخضراء الدِّمن: المرأة الحسناء في المنبت السوء. المرأة كالضلع إن رُمْتَ قوامها كسرتها. الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. جنة الرجل داره. إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكاني أصنه فيه ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا ".

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة.. فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه: " ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها وخُلعت لجُمها فتقحمت بهم النار. وإن التقوى مطايا ذُلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكلٍّ أهل. شُغل من الجنة والنار أمامه. ساعٍ سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى. اليمين والشمال مَضَلّة، والطريق الوسطى هي الجادَّة ".

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب بعض الصحابة في كثرة ما رَوى فقال: " إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله، والله الموعد. كنت رجلا مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم؛ وكنت ألزم رسول الله فاشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا! ".

3- الشعر الجاهلي

وجد النثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلها دليله ومدده، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيباً، مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفه العرب، فظل ينافق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إلمامة تغنينا عن استئناف البحث فيه، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو:

4- الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدنيتين من أعظم مدنيات العالم وهما: مدينة الفرس في شرقها، ومدينة الرومان في غربها، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجا شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين الله، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلة الأولي: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وآدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثر في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهر فصلاً

لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابرا صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله. العنب دو، والتمر يَك: أي في تناولهما مثنى وفادي. وذلك في تحقيق العلماء ل أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ: خِربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُوذَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدية الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية للعهد فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ وَلست مشنبذاً طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائلا زودَا ليعجل صاحبي ويشتان في قولي على كبير
وَلا تاركا لحني لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

وَالتشريع ثائر في تفاصيله بفقه الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاها جماعة من الموالي، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل ابن يسار من الشعراء؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد ابن يحيى، وَصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: " من تعلم البلاغة بلغته من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي ".

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليما وموعظة، فقد شابهُ شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنُّذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي إلى المدينة، وكعب الأحبار الذي أسلم في

خلافة عمر؛ أو من الموالي كوهب ابن مُنَبِّه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فاتسع بذلك علمه، وكان أول من صّنف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس ابن كيسان التابعي، وموسى ابن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين.

وتأثير أدب الموالي في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصِّلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات ن وتعصبهم لآدابهم لم يفكروا في نقل شيء من أدب هؤلاء وأولئك وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من ير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة المُلْك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالي، فعطف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسببنا، وفنى أدبهم في أدبنا، كما تفنى شآبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي

الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرِّقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن يُنفض الإسلام رأسه إليه، وألاَ يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء:224]. ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: 69]، وفي الحديث. " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَريَه خيرٌ له من أن يمتلئ فمه شعراً " فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فحرضوا عليه الأسنة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والارستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قلالاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله ابن الزبعري وعمرو ابن العاص وأبو سفيان، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم. " ماذا يمنع الذين نصوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ " حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان ابن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله ابن رواحة، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجرون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جيدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: " اذهب

إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم " وقوله: " كيف نهجو قريشاً وأنا منها؟ " فقال: " أسلك كما أسل الشعرة من العجين ".

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأى، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فَخَفَتَ صوف الشعر لقلة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أناب عليه، وحتى قال فيه: " إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة ".

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتوح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب ابن زهير والحطيئة ومَعْن ابن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عريضاً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبيد، أو كثرته في الحطيئة والنابعة الجعدي مثلا. والأشبه بالحق أن تقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوَّى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون للبادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فصلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من سؤدد وخلق

وأدب: فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر ابن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرها وأثرها في الإنتاج العقلي للعرب.

* * * * *

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور. ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل تضعف منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس ابن عاصم والأحنف ابن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالجزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية. وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية. وقتل الإمام فتحرج الأمر وانشقت

العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايع بني أمية، يريض لهم الأمر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير، ويؤيده في دعواه وينصره في دعوته. وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطلب لهم يحقهم في الخلافة. وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجِئة. واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعظاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق خصومة من خدّر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وهي أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، واكتمل شباب الذي نشأ في الإسلام، واغتذى بثمر الفتوح، واستمتع بجمال الحضارة، واختلط بأنماط شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصبية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعته الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائه، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته

قد ثأر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه، ولكن هذه الحياة لم نكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدالا دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق:

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه، ووفرة ظله ومائة. وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان والسيد فيه للفرس فأنشئوا إمارة المناذرة. فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشئوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وَفْرُ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر. وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجُلّى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام لشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبني أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة. ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: " يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إليَّ لأضعن عليكم الجزية ". فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبَلية ألوانا شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزاعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحا بدوية وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان كينابيع النهر. يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات، فتكدر

غيره واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباخ الأرض، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً. انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف ن وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا عَلَى النعيم، وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغتنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني " ابن سُرَيج، والغريض، وعبدا، وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسجح " وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بُني إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى ". من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقت عواطف بنيه، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدئ بهم وينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق. وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه

لشأنه دون أن يثيروا عصبته لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغن، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.